الوَصيَّة الصوفية: مقاربة بلاغية حِجَاجيّة وصية الشيخ حَمزَة القادري البودشيشي نموذجا

د محمد البقالي
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
طنجة تطوان الحسيمة، المملكة المغربية

الملخص:

تعالج هذه الدراسة فن الوصية الصوفية بوصفه خطابًا بلاغيًا حجاجيًا، بتحليل وصية الشيخ حمزة القادري البودشيشي أنموذجا. وتنطلق من فرضية أساسية تعدّ الوَصيَّة الصوفية ليست نصًا وعظيًا ساذجا أو نصا تواصليا بسيطا، بل ممارسة خطابية حجاجية مركبة تستهدف التأثير في المتلقي وجدانيًا وإراديًا، بما يحقق الإذعان العملي لمقتضياتها. وقد اعتمدت الدراسة مقاربة بلاغية حجاجية تستثمر مفاهيم البلاغة الجديدة، ولا سيما الإيتوس واللوغوس والباطوس، إلى جانب ما تقترحه بلاغة العواطف من آليات لتحليل استراتيجيات التأثير العملي.

وقد كشف التحليل عن الغرض الحجاجي المركزي للوَصيّة الذي يتمثل في إقناع مريدي الطريقة البودشيشية بمشروعية انتقال الإذن في تلقين الذكر إلى الشيخين جمال الدين ومنير، بوصف هذا الانتقال امتدادًا طبيعيًا لمسارَين؛ روحي وتاريخي متصلين. وقد تحقق هذا الغرض عبر بناء صورة خطابية حجاجية للمُوصِي (إيتوس روحي وأخلاقي)، واستثمار السرد التاريخي لإضفاء المشروعية على القرار، وتوظيف حُجّة المنفعة لإبراز الآثار الإيجابية المترتبة على الامتثال للوصية، إضافة إلى استثارة عاطفتي الخوف والرجاء عبر أسلوبي الوعد والوعيد.

وتخلُص الدراسة في الأخير إلى أن الوَصيَّة الصوفية خطاب قيمي تداولي متكامل، تتضافر فيه المرجعيات الروحية والتاريخية مع بعض التقنيات البلاغية الحجاجية لإنتاج تأثير مزدوج: ترسيخ القناعة وتعزيز الامتثال. وبذلك تؤكد هذه الدراسة أن تحليل هذا الجنس الأدبي حجاجيا يقتضي استحضار بنيته الإقناعية الخاصة، وسياقه الروحي المؤطر لتشكل خطابه.

الكلمات المفاتيح :الوَصيَّة الصوفية، البلاغة الحجاجية، بلاغة العواطف، الإيتوس، الباتوس، السرد الحجاجي، الخطاب القيمي.

مقدمة:

تعاملت نظريــة الأدب العربية مع فن الوَصيَّة مــن منظوريــن اثنــين؛ المنظــور الأول عدّهــا فنا وجنســا أدبيــا قائــم الــذات، بالنظــر إلى تميزها بمعايير مقالية «تتمثل أساســا في موضوع القول وأســاليب الصياغــة»، و«معايــير مقاميــة ثلاثة متكاملة، يتعلق أولها بالمُــوصِي، وثانيها بالمُوصَى لَــه، وثالثها بزمن انعقــاد الوَصيَّة وما يترتب على فعل الإيصاء»[1]. والمنظور الثاني عدّها شكلا أدبيا مخترقا لأجناس عليا من قبيل الخطابة والرســالة وغيرها من أجناس القول الرئيسة.

وفي جميــع الأحــوال تنــدرج الوَصيَّــة ضمــن أجناس الخطاب التي تنطوي على مقاصد تداولية وعمليــة يتوخى المُوصِي من خلالهــا إقناع المُوصَى لَه، وذلك باعتقادها والعمل بمقتضياتها؛ أي إنها خطــاب توجيهي أخلاقي، يهدف إلى إجراء تعديل في الســلوك والقيام بفعل ما، وغالبا ما يستند هذا الخطاب في تأثيره العملي هذا على السلطة الرمزية للمــوصي، وعــلى منظومــة مــن القيــم (الدينية، الروحية، الأخلاقية ...).

وإذا خصصنــا القــول عــن نمــط محــدد من جنــس الوَصيَّــة، أي وصايــا الشــيوخ في الــتراث الصوفي، فإنها تعدّ من الأشــكال الخطابية المركبة التــي يزخــر بها الــتراث الإســلامي، إذ تمزج بين الوظيفــة الروحيــة والوظيفــة التوجيهيــة. فهي خطاب يتشكل انطلاقا من علاقة مخصوصة بين الشــيخ المُوصِي والمُريد المُوصَى، ويهدف إلى توجيه الســلوك الفــردي والجماعي للمُريدين وتشــكيل الوعــي الروحي بآليــات خطابية واســتراتيجيات حِجَاجيّــة، تتفاعــل فيهــا التزكيــة مــع التأثــير البلاغــي والحِجَاجيّ، ونجاعة الخطاب وســلطته مع الوظيفة التربوية. فرغــم كونه خطابا صوفيا مرتبطــا بالتجربــة الصوفية، فإنــه لا يعرى عن تضمنــه مقاصد تداولية تتمثــل في توجيه المُريد/المتلقــي، وبناء قيم مخصوصة، وتشــكيل مواقف محددة، وفق استراتيجيات خطابية واعية.

في هذا الســياق، تنطوي وصية الشــيخ حَمزَة القــادري البودشــيشي عــلى أهمية بالغــة، ليس، فقــط، لأنها صــادرة عــن أحــد الشــيوخ الكبار للطريقة القادرية البودشيشــية بالمغرب، ولا لأنها جــزء من تراث روحي لطريقة صوفية ذات صيت واســع في العالم الإسلامي، بل من حيث مضمونُها الروحــي القيمــي، ومن حيــثُ بنيتُهــا الخطابية وطرق اشتغالها البلاغي والحِجَاجيّ. فهي خطاب يســعف الدارس على كشف آليات البلاغة الروحية التــي يوظفهــا هــذا النــوع الأدبــي، وأيضــا عن اســتراتيجياته الإقناعية وأنماط التأثير الوجداني والأخلاقي التي يتوسل بها.

إنها، بهذه الخصائص، خطابٌ بلاغي حِجَاجيّ يتوســل اســتراتيجيات خطابيــة مخصوصــة تســتحضر جملــة من ضوابــط هــذا الجنس من القــول. منهــا، أولا، أن المقاصــد الأساســية تروم في الغالــب الأعم توجيه ســلوك وقناعة المُوصَى لَه، لذلــك يغلب عليهــا النصح والإرشــاد والتصويب والتأكيــد. وثانيــا، أن وضعيــة التلفــظ تعكــس هرمية في التواصل بين المُوصِي والمُوصَى لَه؛ أي إن العلاقة بينهما غــير متكافئة؛ حيث يتمتع المُوصِي بســلطة رمزية يســتمدها من الحقل الذي يندرج فيه موضــوع الوَصيَّة (روحية، دينية، سياســية، حربيــة، علمية...)، وأما المُوصَى لَه فهو في وضعية تلقٍّ وتســليم. لكن هذا المقــام التواصلي، غالبا، ما

(١) **الوصايــا الأدبيــة إلى القرن الرابع هجريــا، مقاربة أســلوبية حجاجية**، عبد الله البهلول، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص: ٥٠.

تطبعه الوَصيَّة بالتعاطف والخيرية (حب الخير) اللتين تخففان من هذا التفاوت الملموس في الوضع الاعتباري لطرفي التواصل، لأنَّ المقام التواصلي الذي يحكم الوصايا بشكل عام يشكل الموت فيه معطى أساسيا. مما يجعل استناد المُوصِي إلى قوة سلطته الرمزية فقط للتأثير على المُوصَى لَه غير ناجع. وثالثا، أن الوَصيَّة تنزع نحو المستقبل، أي تروم بناء واقع جديد؛ تصوغه في جملة من الأوامر والنواهي. ورابعا وأخيرا، أن الوَصيَّة خطاب قيمي، فهو يتكئ على جملة من القيم التي يتقاسم اعتقادها كلٌّ من المُوصِي والمُوصَى لَه. وهي تشكل في غالب الأحيان مصدرا حِجَاجيّا ناجعا للتأثير في المتلقي.

نسعى في هذه الدراسة إلى تقديم تحليل لوصية الشيخ حَمزَة البودشيشي، وذلك باعتماد المقاربة البلاغية الحِجَاجيّة التي تستحضر وتأخذ بعين الاعتبار ضوابط هذا الجنس الأدبي كما تم التنبيه عليها سابقا، وباستحضار السياق الصوفي والروحي الذي يؤطر عملية إنتاج وبناء هذه الوَصيَّة. فهو سياق تحكمه أبعاد تربوية وروحانية، وَجِبَ تمثلها أثناء تدبّر نص الوَصيَّة وتفكيك استراتيجياته الخطابية. تجري مقاربتنا البلاغية الحِجَاجيّة، إذن، لهذه الوَصيَّة حول إشكالات محددة بوضوح؛ منها ما الغرض البلاغي والحِجَاجيّ لهذه الوَصيَّة؟ ما الصورة الخطابية للموصي التي جسّدها نص الوَصيَّة ورام إحداث تأثير واضح في المُخَاطَبين بها؟ وما العواطف والانفعالات التي استثارتها الوَصيَّة في نفوس المُوصَى لَهم بقصد الإذعان لغرض الوَصيَّة وقضيتها الأساس؟ وهي إشكالات يفسرها التأطير الأجناسي السابق، الذي يجعلنا نتحدث عن ممارسة حِجَاجيّة خطابية مخصوصة في هذه الوَصيَّة.

١ـ الغرض الحِجَاجيّ للوصية:

من المعاني اللغوية التي تحتفظ بها المعاجم للوصية الربط والوصل والعهد والتبرع والحث على المأمورات والزجر عن المنهيات[٢]. ولئن كانت هذه المعاني تتجسد بصورها المعهودة في أذهان المتلقين لمّا يتعلق الأمر بتلقي وصايا معينة (السياسية، الشرعية، الدينية ...)، فإنّ هذه المعاني تتجسد في صور مختلفة تماما لما تتنزّل في الحقل الصوفي، حيث المعرفة الذوقية سائدة على المعرفة العقلية، وحقائق الباطن تعلو حقائق الظاهر، ولغة الإشارة بديلا عن لغة العبارة. فكل المعاني اللغوية السابقة من ربط ووصل وعهد وتبرع وحث ونهي، انطوت عليها وصية الشيخ حَمزَة، إن بشكل صريح أو بشكل ضمني.

إن معنى الربط والوصل يمكن تلمسه من الوضع اللغوي لكلمة «وصية وهي تعني الوَصاة وجمعها وصًى»، هي في الأصل جريدة النخل يُشدّ بها أو جرائد النخل التي يحزم بها[٣]. فمن هذه الصورة البدوية نستشف أن الوَصيَّة سبيل لتوثيق عرى مجموعة مهددة بالتفرق والتناثر. ولعله المعنى الذي نتلمسه في قول الشيخ حَمزَة وهو يتحدث عن الآثار الربانية الناجمة عن الوَصيَّة بالإذن الذي خصّه به والده الشيخ العباس: «وها قد رأينا ذلك الإذن ورآه المؤمنون يتفجر فيوضئ غزارا، وينفلق بركات وأنوارا، ما فتئت تزكو وتزداد انتشارا، غَرَفَ منها في البلدان الدانية والقاصية أفواج من الشيب والكهول، ومن الشباب خاصة رجالا ونساء، أحيوا على مقتضاها وسعدوا بها على ما رزقهم الله من إحياء مراسم النسبة للذكر على مبتغاها...». فبفضل وصية الإذن بالتربية والدلالة على طريق الله تعالى والسلوك إليه يتحقق التماسك

(٢) **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، د ت، ج١٥، ص: ٢٢٧، مادة (وصي).
(٣) **المصدر نفسه**، ج١٥، ص: ٢٢٧.

والتآلف والامتداد والانتشار في الزمان والمكان.

والمعنى الثاني أي معنى العهد يستدعي معنى التكليف. فقد صرحت الوَصيَّة بهذا المعنى تصريحا واضحا. فالشيخ المُوصِي حَمزَة، بعد التنويه بالمنزلة العظيمة للإذن في الطريقة البودشيشية وفيوضاته الربانية وآثاره المباشرة على انتشار الطريقة وامتدادها، وبعد التذكير بـ«أن التخصيص بالإذن» لا يحقق إلا بالوَصيَّة، يعهد بانتقال الإذن إلى ولده الشيخ جمال الدين، ومن بعده حفيده الشيخ منير، عهدا واضحا. يقول الشيخ المُوصِي حَمزَة: «ومن هذا الإعظام لقدر الإذن، ومن الوفاء بحقه وواجبه أن نشهد أمام الحق سبحانه أن الإذن الذي لدينا في تلقين الذكر والدعوة إلى الله على طريق الافتقار إليه، هذا الإذن ينتقل بعد مماتنا إلى ولدنا الأرضى مولاي جمال الدين، ثم من بعده إلى ابنه البار مولاي منير. فسبحان الله تعالى سبحانه، الحي القيوم ما أعظم شأنه».

يشير الملفوظ السابق إلى أن الإيصاء بالإذن، لم يكن الشيخ فيه إلا متبعا سنن شيوخ الطريقة، وعلى هديهم يمضي ويسير، فعندما أوصى بالإذن لولده ولحفيده، فمن باب تعظيم قدر هذا الإذن، الذي أولته الطريقة البودشيشية منزلة عظمى منذ الشيخ أبي مدين بن المنور (ت ١٩٥٥) الذي أخرج الطريقة من مرحلتها التبركية إلى السلوك التربوي بعدما حصل على الإذن بالتربية بعد مجاهدة روحية شاقة[٤].

ويتعزز معنى العهد والتكليف بمعنى آخر للوصية، وهو معنى الحث والنهي. ويمكن الوقوف عليه في جملة من ملفوظات نص الوَصيَّة؛ من قبيل: «فوصيتنا لكافة المُريدين ... أن يبادروا بتجديد العهد لوارثنا الأوحد، والمأذون الأرشد، ونصيحتنا لهم أن يعظموا الرابطة بينهم وبينه...»، «وكلُّ مَن خالف العمل بمقتضى هذه الوَصيَّة فإننا والطريقة منه براء».

لا شكَّ أن الغرض الأساس من هذه الوَصيَّة هو إقناع مُريدي الزاوية أو بالأحرى تسليمهم باختيار الشيخ حَمزَة وقراره في موضوع «الإذن في تلقين الذكر والدعوة إلى الله تعالى»، وبعبارة أخرى القبول بالشيخين المأذون لهما والمُوصَى بهما لتلقين الذكر وتولّي الطريقة البودشيشية من بعده. يقول الشيخ المُوصِي حَمزَة في نص الوَصيَّة: «ومن هذا الإعظام لقدر الإذن، ومن الوفاء بحقه وواجبه أن نشهد أمام الحق سبحانه أن الإذن الذي لدينا في تلقين الذكر والدعوة إلى الله على طريق الافتقار إليه، هذا الإذن ينتقل بعد مماتنا إلى ولدنا الأرضَى مولاي جمال الدين، ثم من بعده إلى ابنه البارّ مولاي منير». ويضيف «فوصيتنا لكافة المُريدين لوجه الله تعالى رجالا ونساء ممن أخذوا عنا العهد على التوبة إلى الله أن يبادروا بتجديد العهد لوارثنا الأوحد، والمأذون الأرشد، ونصيحتنا لهم أن يعظموا الرابطة بينهم وبينه...».

غير أنه ينبغي الانتباه إلى أن البناء الحِجَاجيّ في نص الوَصيَّة التي تستهدف إذعان المُخَاطَب لدعواها يختلف تمام الاختلاف عن مختلف أنماط الحِجَاج الذي يمكن أن يتشكل في خطابات ذات طبيعة جدلية صريحة على غرار الخطاب الفلسفي أو السياسي أو الكلامي (علم الكلام) أو الديني عموما (عندما يتوجه لمُخَاطَب صاحب اعتقادات مناقضة لمعتقدات المتكلم). فعندما عرّف بِرلْمان (Perlman) في كتابه المؤسس مفهوم الحِجَاج، استحضر نوع المتلقي المستهدف بالحِجَاج. يقول في مصنف الحِجَاج البلاغة الجديدة: «موضوع نظرية الحِجَاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها

(٤) **موسوعة وكيبيديا**، مادة «بودشيشية».

أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو تزيد في درجة ذلك التسليم»[٥].

ومن نافلة القول، أن نذكر أن المُخَاطَب في نص الوَصيَّة هم مُريدو الزاوية؛ وهم يتقاسمون المُسلَّمات والاتفاقات المسبقة والحقائق والقيم ذاتها التي ينطلق منها الشيخ المُوصِي في بناء خطابه الحِجَاجيّ في نص الوَصيَّة. بمعنى أن الشيخ المُوصِي عندما صاغ وصيته، بنى خطابها في سياق يفترض أن المتلقي في وضع غير منكر لدعوى الوَصيَّة ولا معترض على غرضها الحِجَاجيّ، بل هو متلقٍّ مسَلِّم بحكمة اختيارات شيخ الطريقة، ومعتقد بسدادها، ولا يساوره أدنى شكٍّ في نجاعتها وفائدتها وآثارها الإيجابية على الزاوية ومُريديها. لذلك سينهض الحِجَاج هنا بالزيادة في درجة الإذعان ومضاعفة التصديق برأي الشيخ المُوصِي وبدعوته، لا في خلْقه من جديد وإعادة تشكيله على غرار ما يجري مثلا في نص المناظرة أو المجادلة. فالمُوصَى في هذه الوَصيَّة في حاجة إلى تذكير أو تنبيه فقط، فهو يقرأ الوَصيَّة ويستمع إليها وهو مجرد من أي اعتراض، بل مؤمن بأنّ الخير والفضل كله فيما أوصى به الشيخ.

ومن المفيد، أيضا، في هذه الدراسة أن نلفت الانتباه إلى أن الحِجَاج يتشكل أيضا خطابيا بحسب الجانب الذي يستهدفه في المستمع؛ فهناك خطابات تستهدف الإدراك والجانب العقلي، وأخرى تستهدف جانب الإرادة والأثر العملي. الأولى تروم بناء قناعة فكرية، وترسيخ معتقد، واعتناق مذهب، أي «تهدف إلى التصديق الفكري المحض»[٦]، وهو الحِجَاج الذي يمكن أن نقف عليه في النص الفلسفي أو العلمي على سبيل المثال؛ والثانية تتغيى ممارسة فعل، والقيام بسلوك، أي بناء «حقيقة عملية»[٧] وليست نظرية، وهو الحِجَاج الذي يمكن أن نقف عليه على سبيل التمثيل في نص الموعظة أو الخطبة الدينية أو الوَصيَّة. لذلك تتوقف نجاعة الحِجَاج على التلاؤم مع المستمع. يقول بِرلْمان (Perlman) في هذا الصدد: «والنصيحة الوحيدة، ذات الطابع العام، التي يمكن أن تقدمها، في هذه الحالة، نظرية الحِجَاج هي أن تطلب من الخطيب أن يتكيف مع مستمعه»[٨].

فلكي نحدد، إذن، بشكل دقيق كيف ينتج هذا النمط من النصوص تأثيره الإقناعي، يجدر بنا استخلاص مقومات البنية الحِجَاجيّة لهذه الوَصيَّة، ومن تمّ تحديد مصادر التأثير التي اعتمدها الشيخ المُوصِي حَمزَة من أجل حمل مُريدي الطريقة على التسليم بمقتضيات وصيته.

٢ــ البنية الحِجَاجيّة في نص الوَصيَّة:

يمكننا معالجة الوَصيَّة باستجلاء البنية الحِجَاجيّة التي تحكّمتْ في صياغة نص الوَصيَّة. فالوَصيَّة بما هي جنس أدبي وجيز يروم استصدار أفعال سلوكية ملموسة في مساحة خطابية موجزة، تقتضي أن تخضع البنية النصية فيها للمنطق البلاغي الحِجَاجيّ الذي يؤطر هذه البنية ويوجهها لتحقيق إذعان المُخَاطَب المُوصَى والتأثير فيه تأثيرا يدعوه إلى الفعل.

ولأجل استخلاص الاستراتيجيات الإقناعية التي توسّل بها المُوصِي، نقترح معالجة الإشكالات الآتية

---

(٥) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص: ١٣.

(٦) **الإمبراطورية الخطابية، صناعة الخطابة والحجاج**، شاييم بِرلْمان، ترجمة وتقديم وتعليق د الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م، ص: ٨٢.

(٧) **المرجع نفسه**، ص: ٨٣.

(٨) **المرجع نفسه**، ص: ٨٣.

في إطار ما تقترحه «بلاغة العواطف»[٩] من قبيل ما الصورة الخَطابية التي شكلها الشيخ المُوصِي عن نفسه خطابيا من أجل مضاعفة إذعان المُريدين لقراره؟ وما العواطف التي أثارتها الوَصيَّة في نفوس المُريدين حتى جعلتهم في وضع يتأثرون بقرار الشيخ المُوصِي حَمزَة، ويزدادون تمسكا به؟ وأخيرا، ما التقنيات الحِجَاجيّة التي نهضت بهذا التأثير الذي مسّ إرادة ووجدان المُريدين، لا عقولهم فقط، حتى دفعهم إلى مزيد تعلقٍ بوصية الشيخ وامتثالٍ لمقتضياتها؟

١ـ٢ـ إيتوس الشيخ المُوصِي حَمزَة (الصورة الخطابية للشيخ المُوصِي):

يجب أن نتذكر أن الغرض الأساسي من إنجاز الوَصيَّة والحرص على إبلاغها لمن يهمه أمرها هو الطلب؛ «طلب المُوصِي إلى المُوصَى لَه تصديق أقواله والعمل بها، واعتناق اقتناعاته أو تأكيدها»[١٠]. ولأجل هذه الغاية سلك الشيخ المُوصِي حَمزَة بناء مخصوصا لوصيته استلهم إطار الرسالة، بالنظر إلى ظروف انعقاد الوَصيَّة وموضوعها الذي تحيط به هالة من القداسة مادام سيرسم مستقبل الطريقة والزاوية معا. فمثل هذه الوَصيَّة يجب أن تصاغ في غياب المُوصَى (مُريدي الزاوية)، الذين هم في تَطلّعٍ دائم إلى من سيرث السر ويخلف الشيخ في الطريقة. لذلك استلهمت الوَصيَّة إطار الرسالة في بناء موضوعها على عكس الوصايا التي تصاغ في حضور المُوصَى فتنطوي الوضعية التلفظية على تفاعل مباشر بين المُوصِي والمُوصَى وتنطبع ملفوظاتها بسمات الحضور والقرب.

يحرص الشيخ المُوصِي حَمزَة منذ الاستهلال على أن يضع المُخَاطَب في سياق موضوع الوَصيَّة، فقبل الانتقال إلى بسط غرضها، نلمس أن الاستهلال يومئ بطرف خفي إلى موضوع الوَصيَّة. فبعد الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد، تعْمدُ الوَصيَّة إلى تخصيصه بصفتي الرحمة والهداية وأنه خير متبع. وهي صفات حرصت الوَصيَّة على التنبيه إليها في حق الشيخ، لأهميتها في «طريق الإرشاد إلى الله وسبيل الدلالة عليه». كما أن قصر وراثة الرسول صلى الله عليه وسلم في العلماء العاملين والذاكرين الله والمأذون لهم فحسب، لا مطلق العلماء، إشارة إلى أن الشيخ المُوصِي بصدد الوَصيَّة بالإذن في التربية وطريق الإرشاد إلى الله تعالى بمن اختصّ بهذه الصفات، فجمع بين العلم والعمل والذكر إلى الله والإذن بتلقين هذا الذكر. لقد اضطلع هذا الاستهلال بوظيفة الاستحواذ على انتباه المُوصَى من خلال دفعه إلى التفكير والتدبر منذ البدء في غرض الوَصيَّة.

فبعد أن أومأ الشيخ المُوصِي إلى غرض الوَصيَّة، وهيأ المُخَاطَب المُوصَى وجدانيا لتقبل هذا الغرض. يمكننا أن نتساءل عن الصور الخطابية التي رسمتها وصاغتها الذات المتلفظة عن نفسها في هذه الوَصيَّة حتى تضطلع بوظيفة التأثير في المُخَاطَب، أي الصورة التي تقدم بها الذات نفسها في الخطاب. إذ تؤكد البلاغة الحِجَاجيّة منذ أرسطو[١١] على أن الإيتوس أو صورة الخطيب الأخلاقية كما تتجلى في

---

(٩) يمكن الاستئناس بهذا الموضوع في الكتاب الآتي:
La rhétorique des passions, Gisèle Mathieu Castllani, .puf, Paris, 1re édition, 2000

(١٠) **الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجريا، مقاربة أسلوبية حجاجية**، عبد الله البهلول، مرجع مذكور، ص: ١١٩.

(١١) يقول أرسطو:» الحجج الكامنة في الخطاب ثلاثة أنواع؛ نوع منها يقوم على خلق الخطيب، والنوع الآخر على عواطف المستمع، بينما يقون النوع الأخير على الخطاب نفسه عندما يكون حجاجيا أو يظهر كذلك».
Aristote, **Rhétorique**, le livre de poche, Librairie Géné-rale Française, ١٩٩١, p: ٨٣.

الخطاب وتجعله جديـرا بالثقة وبالمصداقية يمكن أن تكـون مصدرا حِجَاجيّا قويـا بجانب مصدرين آخرين وهما الحجـج العقلية أي اللوغوس، وإثارة أهواء المُخَاطَب أي الباطوس. يقول أرسـطو في هذا السياق عن خُلُق الخطيب أنه: «يجلب الإقناع عندما يصاغ الخطاب على نحو يكون فيه الخطيب جديرا بالثقة. إننا ننجذب أكثر بشكل أكثر تلقائية وسرعة نحو الأشخاص الأخيار»[١٢]، بل إنه يلح على نجاعة الإيتـوس في الإقناع بالمقارنة مـع مصدري الحِجَاج الآخرين، يقـول في هذا الشـأن: «ليس صحيحا ـــ كمـا يزعم بعض الكتـاب في مقالاتهم عن الخطابة ـــ أن الطيبة الشـخصية التي يكشف عنها المتكلم لا تسـهم بشيء في قدرته عـلى الإقناع، بل بالعكس، ينبغي أن يعدّ خُلُقه أقوى عناصر الإقناع لديه»[١٣]. هكـذا تصبح المصداقية التي يتمتـع بها المتلفظ في خطابه مصدرا حِجَاجيّا عاطفيا ناجعا.

إلا أننـا لا يمكـن أن نسـلم لأرسـطو أن نجاعة الخطـاب تتوقف فقط على الأخـلاق الخَطابية التي ترتسـم في الخطـاب، إذ لمـا يتعلـق الأمـر بالحقل الصوفي وبالزاوية وما يترتب عنها من علاقة روحية تجمع سلفا بين الشـيخ المُوصِي والمُخَاطَب المُوصَى، فـإن صـورة المُـوصِي لا يمكـن أن تحقـق التأثير المقصـود «ما لم يؤكد القـولُ المرجع وما لم يبرهن بالفعـل على صدق القـول، فتطابقَ أقوالـه أفعاله وتتجسـد في سـلوكه وسـيرته»[١٤]، أي أن التأثـير الحاصـل هو ثمـرة تفاعل بين الإيتـوس الخطابي (Ethos discursif) والإيتـوس مـا قبل الخطابي (Ethos préalable ou pré discursif).

لقد قدمت الوَصيَّة الشـيخ المُـوصِي عارفا بالله تعالى، وحكيما خبيرا بدقائق الطريق إلى الله تعالى. تجلـت هذه الصـورة النصيـة مباشرة بعـد كلمة فصـل الخطاب (وبعـد)، إذ شرع في إعادة تعريف الطريق الموصل إلى الله تعـالى والدالّ عليه تعريف شـيخ مُربٍّ، عالم عارف بالله. فطريق الإرشـاد إلى اللـه تعالى لا يتحقق إلا بتلقين الذكر. وهو عند أهل الصوفية جملـة أوراد وآداب مخصوصة (الطريقة المعتمـدة في الزاويـة) يعتمدهـا شـيخ الطريقة في تربية وتزكية النفوس. بعد التذكير بالمنزلة العظيمة لطريق الإرشاد إلى الله لدى العارفين باعتماد صيغ اسـم التفضيل التي تضمن مطلـق الأفضلية (أقوم طريـق، أبيَنُ مَحجّة، أعظم توفيـق، أنجَحُ منهاج)، قدم تعريفا حِجَاجيّا يـروم دعوة المُخَاطَب المُوصَى بالتمسـك بهذا الطريق. فركز في تعريفه على الآثار والنتائـج العظيمـة المترتبة عنه (تنكشـف بها[١٥] الحجـب عن قلوب المنتسـبين، وتـزول بها الأكدار، وتدرك بها مقامات الأطهار، وبها ينال العلم الذي به يُعبَد الله بإخلاص من دون شوائب الأغيار). ولعلَّ تعريف الشـيخ الطريقة بالتركيز على هذه النتائج والأثار التي تترتب عنها، هو بالأسـاس نقل للقبول والموافقـة التي تحظى بها هذه الآثار لدى المُخَاطَب المُوصَى إلى الوسيلة والسبب موضوع إقناع الوَصيَّة. فلا شك أن هذه البنية الحِجَاجيّة المشكلة من سبب يفضي إلى نتيجة تضمن نقل الإذعان والقَبول الذي تحظى بـه النتائج، باعتبارها اتفاقات مسـبقة[١٦]

---

(١٢) **Ibid.**

(١٣) **فن الخطابة**، أرسـطو، ترجمة عبـد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، ص: ٣٠.

(١٤) **الوصايـا الأدبيـة إلى القـرن الرابع هجريـا، مقاربة أسلوبية حجاجية**، عبد الله البهلول، مرجع مذكور، ص: ١٨٥.

(١٥) اسـتعمل الشيخ في وصيته ضمير المؤنث العائد على طريق الإرشاد إلى الله للإحالة على الدلالة الاصطلاحية أي الطريقة الصوفية، لا المعنى اللغوي للكلمة.

(١٦) يقول برلْمان Perlman:» إن التكيف مع المستمع، هو قبـل كل شيء، اختيار دعاوى متّفق عليها عنده، كمقدمات للحجاج.

بين الشيخ المُوصِي ومُريدي الزاوية المُوصَى لَهم، إلى الوسيلة والسبب المفضي إليها؛ أي طريق الإرشاد إلى الله تعالى الذي يوصي به الشيخ، والذي يتوقف على تلقين الذكر.

لقد قرر الشيخ المُوصِي هذه الآثار والنتائج في شكل حقائق يقينية لا يرقى إليها شك، رسخت ـ بالرغم من تعددها، معنى واحدا في أذهان المُريدين حتى كأنه شاخص عيانا أمام أنظارهم، وقد ضاعف من هذا التشخيص حرص الشيخ على إيراد معانيه في تعابيرَ تفيض جمالا من حيث الإيقاع والصور (الجناس والسجع والاستعارة: أقوَم، أبْيَنُ، أعظَم، أنجَحُ/ الأكدار، الأطهار، الأغيار/ حلاوة الإيمان، نبضات الإخلاص..).

لا شك أن بداية الوَصيَّة دلّتْ على صورة شيخ عارف بالله تعالى، حكيم خبير بدقائق الطريق إلى الله، وبذلك كشف استهلال هذه الوَصيَّة عن صورة خطابية لموصٍ جدير بالثقة والاتباع، حُقَّ على مُريديه العمل بوصيته. وإمعانا في ترسيخ هذه الصورة في أذهان المُريدين، يقدم المُوصِي نفسه شاكرا لله وحامدا له نِعمَ هذه الطريق، يقول الشيخ في وصيته: «وبعد البَعد إلى لا ما لا نهاية فلا وجود إلا لله، وقبلَ القَبل إلى ما لا دراية فلا وجود إلا لله، ففي بحر الوحدة ذهبت الفرديات وانطمست الأنانيات، وفي حضرة القيام المحمدي ثبتت حقوق العبودية لله الواحد الفرد الصمد، فوجب شكر الشكور على العُبَيد حَمزَة بن العباس البودشيشي القادري». ولأنَّ المُوصِي يستحضر دائما سؤال مشروعية الوَصيَّة وغرضها الذي قد يتبادر إلى ذهن المُوصَى، فإنه سرعان ما سيذكر مُخَاطَبه بصريح العبارة عما أومأ إليه في مفتتح الوَصيَّة لما قال: «ورضي الله عن كافة العلماء العاملين، الذاكرين الله كثيرا من الثلة المأذونة، ومن زمرة الوارثين»، فقد أكرمه الله تعالى بهذه المواصفات وقام بها أحسن قيام. يقول في هذا الشأن: «فنحمدُه على ما رزقنا من معنى العبودية، وعلى ما أورثنا وهدانا إليه من توجيه القلوب وترقيتها حتى تُخلص التعلق بالألوهية، وذلك منه سبحانه وتعالى مِنّة وفضلا، «وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظورًا»[١٧]. فالصورة التي قدّم بها نفسه في نص وصيته للتأثير في المُوصَى أنه صاحب مشروعية ومصداقية في التربية والإرشاد إلى طريق الله تعالى. غير أنه صاغ هذه المصداقية بطريقة غير مباشرة، فهي ليست من كسب الذات بقدر ما هي عطاء ومِنّة من الله تعالى، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة بكل وضوح.

لا يكتفي المُوصِي بتقديم ذاته في صور من قبيل الشيخ العارف بالله والحكيم والمأذون له والعالم العامل الوارث، بل رسم لنفسه صورة خطابية تقدمه شيخا مُوصيا مسؤولا عن واجب انتقال الإذن إلى الخلف الذي هو أهل له. يقول الشيخ في وصيته: «ومن هذا الإعظام لقدر الإذن، ومن الوفاء بحقه وواجبه أن نشهد أمام الحق سبحانه أن الإذن الذي لدينا في تلقين الذكر والدعوة إلى الله على طريق الافتقار إليه، هذا الإذن ينتقل بعد مماتنا إلى ولدنا الأرضَى مولاي جمال الدين، ثم من بعده إلى ابنه البارّ مولاي منير». فمن الوفاء لحقِّ هذا

ومن بين مواد الاتفاق، التي يستمد منها الخطيب منطلق خطبته، هناك ما يدعو إلى تمييز تلك التي تستند إلى الواقعي (Le réel)، وهي الوقائع (Les faits) والحقائق (Les vérités) والمظنونات (Les présomptions)، عن تلك التي تعتمد على المفضل (Le préférable)، وهي القيم (Les valeurs) والترتيبات (Les hiérarchies) ومواضع المفضّل (Les lieux du préférable)».

الإمبراطورية الخطابية، صناعة الخطابة والحجاج، شاييم برلْمان، ترجمة الحسين بنو هاشم، مرجع مذكور، ص: ٩٣.

(١٧) **سورة الإسراء**، الآية: ٢٠.

الإذن، والإعظـام لقدره، أن يضطلع الشـيخ بنقله إلى مَن هو أهل له. فالغرض الأساسي لهذه الوَصيَّة هو التصريح باسـمَي الوارثَين المأذون لهما بتلقين الذكـر وأوراد الزاوية؛ وهما الشـيخان ابن المُوصِي جمـال الدين، ومن بعده حفيده الشـيخ منير؛ وهو الغرض الأساس الذي صيغت من أجله الوَصيَّة.

يتضح بشـكل جلي أن الوَصيَّة بنيت بناء يهيئ فيـه الشـيخ المُـوصِي وجدانيـا وروحيـا المُخَاطَب المُوصَى، وهم مُريـدو الزاوية والطريقة، عن طريق التذكـير بالعلاقـة القائمـة بين المُـوصِي والطريقة (العلمـاء العاملـين، الذاكريـن اللـه)، والتذكـير بمشروعيـة المُـوصِي بوصفـه شـيخا عالمـا عاملا حكيما، عارفا بلطائف الطريق، ناهضا بالمسؤولية التي يقتضيها الإذن الذي انتهى إليه من قبل الشيخ الحاج العباس (ت١٩٧٢م)، بما فيها الإيصاء بهذا الإذن لمن هو أهله. وهو غرض الوَصيَّة المباشر. وهو غرض مَهَّدَ له الشـيخ تمهيدا مقنعا، استحضر فيه جزءا من تاريخ الطريقة، والمسار الذي حكم عملية توريـث الأذن وانتقالـه. وهو المسـار الذي حرص الشيخ المُوصِي على اسـتمراره وامتداده في مستقبل الزاوية وطريقتها.

٢ـ٢ـ السرد الحِجَاجيّ في الوَصيَّة:

إن الوَصيَّـة قيد التحليـل الحِجَاجيّ تخرج عن النمط المعهود، الذي تُشـكِّل متنَه سلسلةٌ من صيغ الطلـب؛ يمكـن تركيزها في صيغتـي الأمر والنهي؛ افعلْ، لا تفعلْ. وعادة هذا النمط يتشـكل في سياق تواصلي محكوم بحضور طرفي التواصل في وضعية تخاطبيـة مبـاشرة، لا بسـياق تواصـلي محكـوم بمسـافة زمنيـة ومكانية يمكـن أن تؤثر على نمط الصياغـة والتعبير، وأن يسـمح للوصيـة أن تتخذ شكلا وطريقة في التعبير مخصوصين.

فقد سـبق أن نبهنا إلى أن هـذه الوَصيَّة اتخذت إطار الرسـالة في الصياغة، بتمثلهـا المقام الكتابي لا الشـفهي الذي ما يتحكم في إنتاج الوصايا. لذلك يمكن للمرونة التي يتمتع بها هذا الإطار أن يسمح باختراق السرد شكل الوَصيَّة(١٨)، ويعمل على تمديد فضائهـا الخطابي بمـا يؤدي إلى تحقيـق الوَصيَّة غرضهـا الحِجَاجـيّ. فالسرد حـين يحضر في نص تـداولي، فإنـه لا يصير حكيـا يروم تمثيـل الواقع فحسـب، ولا يتغيى تحقيـق المقصديـة الجمالية، بل ينهض حضـوره بوظيفة بلاغيـة حِجَاجيّة أي الإسـهام في حمـل المُخَاطَب على الإذعـان لأطروحة المتكلم.

لقد اسـتعانت البنيـة النصيـة للوصية بالسرد لبنـاء غرضهـا البلاغـي أي الحِجَاجـيّ، فالمُوصِي توسـل الـسرد أقـوالا ووقائـعَ قبل بسـط غرض الوَصيَّة أمام المُخَاطَب. فبعد تقريره حقيقة وراثته الإذن من والده، وتعزيز هذا التقرير بالآية الكريمة «وَمـا كانَ عَطـاءُ رَبِّكَ مَحْظورًا»(١٩)، فسـح المجال للسرد ليضطلع بوظيفتين اثنتين هما؛ رسـم المسار التاريخي لموضوع الإذن بتلقـين أوراد الزاوية، ثم تعظيمه في وجـدان المُخَاطَبين، حتى يزدادوا تعلقا به، وامتثالا لقرار المُوصِي بشأنه. فالسرد الذي شمل تقريبـا ثلاث فقرات(٢٠) لم يكـن الغاية منه تأريخا

---

(١٨) يقـول أمبرطـو إيكو:» يمكـن تفعيل الحكايـة أو مقطعا من الأحداث حتى في النصـوص غير السردية، بل وحتى في الأفعال اللغوية الأولية مثل الأسئلة والأوامر والقسم وأجزاء من المحادثات».

Umberto Eco, **Lector in Fabula**, éditions Grasset Fasquelle, pour la traduction francais, ١٩٨٥, p: ١٣٤.

(١٩) **سورة الإسراء**، الآية: ٢٠.

(٢٠) وهي الفقرات التي اندرجت بين بداية الوصية التي تكفلت ببناء صورة عن الموصي جديرا بالثقة والأهلية والمسـؤولية والسـداد في اتخاذ القرار كما وضحنا ذلك في تحليلنا، وبين الفقرة السادسـة حيث نص الشـيخ المـوصي على الغرض الرئيسي للوصية، **وهو الوصية بـ«الإذن بتلقين الذكر والأوراد» إلى الشـيخين ابنـه جمـال الديـن وحفيـده**

لمسار انتقال هذا الإذن، ولا تمثيلا لوقائع تاريخية، وإنما نهض السرد في هذه الوَصيَّة بوظيفة إقناعية وجدانيا، وذلك عن طريق تعظيم منزلة «الإذن» في نفوس المُريدين المُوصَى لَهم، وتصوير قراره المتخذ، وهو غرض الوَصيَّة، تصويرا يضفي على المشروعية والحكمة، وأنه لا يخرج عن المسار الطبيعي والحتمي لطريقة الزاوية.

لقد عمدت الوَصيَّة إلى إحاطة عملية «انتقال الإذن» بهالة من القداسة، بُشرى ومِنّة من الله تعالى يخص بها شيوخ الزاوية وطريقتها «ذوي العزم والتصديق والاجتهاد». يقول الشيخ في وصيته: «بُشرى من الله بقبول توبة الآباء والأجداد، وبإكرامِ ذوي العزم والتصديق والاجتهاد، وحُسنى منه تبارك وتقدّس، بأن أوجبَ الإرث بحكمه للأحياء في عرض الحسّ. فلا يُعجزه أن يُوجبه سبحانه بهذا الشرط كذلك في المعنى». فهذه الحقيقة المجردة العامة، ستجسدها الوَصيَّة في وقائع ملموسة من قبيل تحقق بشارة الشيخ الحاج العباس الذي أورث ابنه الشيخ حَمزَة الإذن. يقول الشيخ المُوصِي: «فقد صدقت ولله الحمد بشائرُ كان يُخبر بها الوالدُ، تغمده الله برحمته، وقد أبرّه الله في الإذن الذي خصّنا به وأشهَدَ عليه إخوانَنا الفقراء، بعد أن ذكره تلميحا وتصريحا، ثم وثّقه في وصية مسجلة على القواعد المرعية».

لا شكّ أن اعتماد الوَصيَّة في تقرير هذه الحقائق واستدعاء وقائع تاريخية سردا، إنما لأجل النفاذ إلى نفوس المُريدين المقصودين بالوَصيَّة، فالسرد أشد نجاعة في جعل الحقائق والوقائع عالقة بالأذهان والوجدان. لذلك استرسل الشيخ المُوصِي في الفقرتين المواليتين للشاهد السابق في استخدام السرد، لا من أجل التأريخ لماضٍ سابق وواقع معيش، ولا من أجل استحضار معلومات وأخبار غابت عن عقول المُوصَى لَهم وأذهانهم، بل من أجل تعظيم منزلة «الإذن بتلقين الذكر» في نفوسهم، وحثهم على التسليم بالقرار الحكيم المتخذ في الوَصيَّة. وهكذا سعى السرد إلى أن ينظر المُريدون المُخَاطَبون بهذه الوَصيَّة بعين التعظيم والتقدير للإذن الذي تلقاه الشيخ المُوصِي من والده الشيخ العباس في وصية كما يقول: «مسجلة على القواعد المرعية»، وذلك باستدعاء وقائع ملموسة تعكس الآثار الإيجابية لهذا الإذن، حيث انتشرت الطريقة البودشيشية على يد الشيخ المُوصِي حَمزَة وارث الإذن انتشارا عمّ بلدانا عديدة وأناسا من مختلف الأعمار. يقول الشيخ المُوصِي في وصيته: «وها قد رأينا ذلك الإذن ورآه المؤمنون يتفجر فيوضئ غزارا، وينفلق بركات وأنوارا، ما فتئت تزكو وتزداد انتشارا، غَرَفَ منها في البلدان الدانية والقاصية أفواجٌ من الشيب والكهول، ومن الشباب خاصة رجالا ونساء، أحيوا على مقتضاها وسعدوا بها على ما رزقهم الله من إحياء مراسم النسبة للذكر على مبتغاها».

وإمعانا في تكريس هذه الوظيفة الحِجَاجيّة للوصية، لم يكتف السرد باستدعاء وقائع قريبة من تاريخ الشيخ المُوصِي، بل مضى بعيدا يستحضر معطيات تخص الشيوخ المؤسسين من قبيل الشيخ أبي مدين بن المنور ووالده الشيخ العباس. «ومن تجلياته عزَّ وجلَّ بالوسع والإكرام، ومن سابغ يمنه في البدء والإكمال والتمام، أن هذه الشجرة الزكية التي نستظل بظلها، وهي شجرة الاجتماع على ذكر الله، كان قد جدّد غرسها في التربة البودشيشية القادرية شيخنا وابنُ عمنا سيدي أبو مدين بن المنور، وعهد بالإذن فيها لوالدنا».

إن الوَصيَّة لا تفسح المجال واسعا للتذكير بتاريخ الزاوية الغني والواسع، بل السرد فيها

الشيخ منير.

اختص فقط بتصوير مسار انتقال «الإذن» وطريقه من شيخ إلى شيخ، وكيف أن كلّ شيخ تعهد الطريقة تعهدا ضَمِنَ لها الانتشار والامتداد. يقول الشيخ المُوصِي: «إن هذه الشجرة الزكية التي نستظل بظلها، وهي شجرة الاجتماع على ذكر الله، كان قد جدّد غرسها في التربة البودشيشية القادرية شيخنا وابن عمنا سيدي أبو مدين بن المنور، وعهد بالإذن فيها لوالدنا، فتعهدها بالرعاية حتى اشتدّ عودُها، ثم انتقل إلى عفو الله بعد أن أذن لنا مواصلة صيانتها إذنا جامعا مجموعا شاملا، أنفقنا المُهجة في تصريفه وفي العمل على توسيع دائرة النفع به إعظاما لقدره، ووفاء لحقّه وواجبه، مستمدين الحولَ والقوة من الله على ضعفنا».

هذا السرد التاريخي لم تكن الغاية منه نقلَ معلومات تاريخية إلى المقصودين بالوَصيَّة، ولا التذكير بها، بل هو إضفاءُ المشروعية على قرار يمثل خطوة مستأنفة في المسار، ويستكمل حلقة منتظرة في سلسلة انتقال الإذن من شيخ مُربٍّ إلى شيخ مُربٍّ. لذلك نهض السرد في الوَصيَّة بوظائف حِجَاجيّة، استهدفت دفع المُخَاطَبين بالوَصيَّة إلى التسليم بحكمة قرار الشيخ المُوصِي وسداده في نقل الإذن إلى ولده وحفيده. وهكذا يكون مدار المقاطع السردية في نصوص الوصايا على الحديث عن ذات المُوصِي واستدعاء «تجربة من تجاربه» أو «استدعائه تجربة أحد الحكماء ممن يوثق بهم وتكون لهم في الوجدان الجماعي حظوة وإجلال»[٢١].

٣-٢- أهلية المُوصَى به وبلاغة الاختتام في الوَصيَّة:

لا شكَّ أن الاستعراض التاريخي سردا لانتقال الإذن من شيخ إلى شيخ، كان الغرض منه تهيئة المُتلقي وجدانيا لتقبل غرض الوَصيَّة، وهو نقل الإذن للشيخين جمال الدين ومن بعدِه الشيخ منير. لذلك قدم السرد هذه اللحظة على أنَّها امتدادٌ طبيعي لمسار انتقال الإذن، وأنّ الشيخ المُوصِي بهذا القرار هو متّبعٌ لتقليد دأب عليه شيوخ الزاوية، ومعظِّمٌ لقدر هذا الإذن كما عظّمه سابق مشايخ الطريقة. يقول في فقرة من الوَصيَّة تمثل جوهرها الأساس والغاية التي كُتبتْ من أجلها حيث ينصّ بصريح العبارة على اسمي الشيخين الوارثين لهذا الإذن: «ومن هذا الإعظام لقدر الإذن، ومن الوفاءِ بحقّه وواجبِه أن نشهدَ أمام الحقّ سبحانَه أن الإذن الذي لدينا في تلقين الذكر والدعوة إلى الله على طريق الافتقار إليه، هذا الإذن ينتقل بعد مماتنا إلى ولدنا الأرضَى مولاي جمال الدين، ثم من بعدِه إلى ابنِه البارّ مولاي منير».

وبمجرد ما أن صرّح الشيخ المُوصِي باسم الشيخين الوارثين المُوصَى بهما، فكأنه استشعر استباقا دهشة المُريدين، لا من اسمَي المُوصَى بهما، بل من المشاعر التي تُخلفها الوَصيَّة في نفوس المُخَاطَبين بها؛ إذ تُذكّرُهم بلحظةِ الفراق والرحيل ومغادرة الدنيا الفانية، ففي العادة تنعقدُ الوَصيَّة في زمن يؤذن بالموت، والمُوصِي لا يكتبُ وصيته إلا بعد أن يستشعرَ دنوّ أجله. لذلك عمدَ الشيخ المُوصِي، دفعا لمختلف مشاعر الحزن والقلق التي يمكن أن تخلفها هذه الوَصيَّة في نفوس المُتلقّين لحظة التلقّي، إلى التذكير بحتمية الموت، قائلا: «فسبحانَ الله تعالى سبحانه، الحيّ القيوم ما أعظم شأنه. فلكلّ أجلٍ كتاب». وزاد من حضور هذه الحقيقة ومثولها في الأذهان تقريرُها في صيغة بلاغية وهي المقابلة (خلود الذات الإلهية؛ الخالق سبحانه (الحي القيوم)، وفناء المخلوق (لكل أجلٍ كتاب).

(٢١) **الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجريا، مقاربة أسلوبية حجاجية**، عبد الله البهلول، مرجع مذكور، ص: ٣٠٢.

ولأجلِ ترسـيخ أجواء دنو الرحيل والموت في نفوس المُريدين، وهي الأجواء التي يمكن أن تنعقد في ظلها دائما الوصايا عموما، يستدعي الشيخ المُوصِي الآية الكريمة التي تقرّ الموت حتى على الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه. يقول الشيخ المُوصِي: «وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ نزل في حقه قوله تعالى: «وَمَا مُحَمَّد إِلَا رَسُـولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُل، أَفَإِن ماتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقابِكُم، وَمَن ينقَلِـبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يضُرَّ اللهَ شَـيْئا، وَسَـيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِين»[٢٢]. صدق الله العظيم». ويكفي أن نتذكـر، في هذا الصدد، كيـف ردَّد الخليفة أبو بكر الصديـق رضي الله عنه هذه الآيـة، وذلك يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، حين أصيب بالذهول والصدمة كثـيرٌ من الصحابـة رضي الله عنهم، بل منهم من أنكر الوفاة من شدة هول المصاب الجلل. فاستحضار الآية في الوَصيَّة دعوة للمُريدين بالإيمان بحتمية الموت، وتسـويغٌ لإنشاء الوَصيَّة التي ذكرنا مـرارا أن زمن انعقادها غالبا ما يرتبط بدنو رحيل المُوصِي.

غير أنه بعد أن نصَّ الشـيخ المُوصِي على المُوصَى بهما، وصرّحَ باسـمَي الشيخين الوارثين من بعده، دعا بشكل واضح إلى الالتفاف حول الشيخ المأذون لـه وهو الشـيخ جمـال الدين وتجديـد العهد لهذا الوريـث الأوحد، وتعظيم الرابطـة معه. «فوصيتنا لكافـة المُريدين لوجه الله تعالى رجالا ونسـاء ممن أخـذوا عنا العهـد على التوبـة إلى اللـه أن يبادروا بتجديـد العهـد لوارثنـا الأوحد، والمأذون الأرشـد، ونصيحتنا لهـم أن يعظموا الرابطـة بينهم وبينه، تعظيما لبنيانها المرصوص بعبارة التوحيد لا إله إلا الله». ثـم يبشرُ المُريدين بصحة هذا الإذن وبمجالِه وطبيعتـه. «وبُشرانـا بأنّـه إذنٌ صحيـح متـين في الأذكار العامة والخاصة، وفي التربية بمواهب الهمة وبقوةِ الحال وحكمة المقال».

لم يشأ الشيخ المُوصِي أن يختتم وصيته من دون إجابـة على سـؤال مفترض يمكن أن نستشـفه من خاتمة الوَصيَّة. وهو السؤال الذي يمكن أن يطرحه أي متلـق لهـذه الوَصيَّـة، وهو لماذا يكون الشـيخ جمال الدين تحديدا هو وريث الإذن؟ لذلك خاضت خاتمـة الوَصيَّـة حـوارا، يظهر فيه صوت الشـيخ المُـوصِي واضحـا، ويظل سـؤال المتلقـي المفترض متواريا ومضمرا. إذ جاءت الخاتمة كلها اسـتدلالا على أحقّيّة وأهليّة الشـيخ جمال الدين وراثة الإذن. فكيف حاججت الخاتمة لدعواها؟

أ- تعظيم صورة الشيخ المُوصَى به في نفوس المُريدين:

حرصـت الوَصيَّـة في خاتمتها عـلى تعليل قرار الشـيخ المُوصِي، وذلك باستثمار حجتين أساسيتين تتيحهمـا النظريات البلاغيـة الحِجَاجيّة[٢٣]، الأولى حجّـة المنفعة والثانية حجّة تفخيم صورة الشـيخ المُـوصَى به، وهي صورة يسـتند المُـوصِي في بنائها إلى جملـة من القيم والمواضع التي تشـكل الخلفية الاعتقادية للمُخَاطَب أي مُريدي الزاوية.

(٢٢) **سورة آل عمران**، الآية: ١٤٤.

(٢٣) وينبغي أن نكون على بينة أن الحجاج، بخلاف الاسـتدلال المنطقي الصوري، عندما يتشكل في اللغات الطبيعية وليس الاصطناعيـة، يكـون مجالـه كما يقـول بِرلْمـان:» مجال المرجـح vraisemblable أوالمفضـلplausible أوالمحتمـل probable».

المصنف في الحجاج الخطابة الجديدة، شـاييم بِرلْمان ولوسي أولبرخت تيتـكا، ترجمة محمد الـوالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٣م، ص: ٨٥.

وهكـذا يصبـح هدف الحجـاج «ليـس إقامة الدليـل على صدق النتيجـة انطلاقـا من صـدق المقدمتين، كما هو الشـأن في البرهنة، بل هدفـه هو نقل التصديق الممنوح للمقدمات إلى النتائج».

الإمبراطورية الخطابية، صناعة الخطابة والحجاج، شاييم بِرلْمان، مرجع سابق، ص: ٨٢.

فقد أكدت الوَصيَّة، من جديد وعلى سبيل الختم، عــلى أهمية غرض الوَصيَّــة؛ أي الإذن بتلقين الذكر للشيخ جمال الدين، وذلك باعتماد حجة المنفعة[٢٤] (argument pragmatique). «فلأجــل تقديــر حدثٍ ما تنبغي الإحالة على آثاره»[٢٥]. فهذه الحُجّة تقوم على تعليل القرار المُوصَى به (أي الإذن للشيخ جمــال الدين) بناءً عــلى المنافع والفوائد الملموســة والمنتظــرة من هــذا القرار، وعلى مــردوده الملحوظ على الجماعة. فالشــيخ المُــوصِي يحدد مجموعة من الفوائد الملموســة المترتبة على قــراره، من قبيل[٢٦]: تكثــر به أفواج التائبين، تُصانُ به رســومُ الشريعة الربانيــة ومقاصدهــا، تُتّبــع بــه الســنة المحمدية المطهرة، يتحقق بــه القرب لمن كان صادق الطلب، يَعمّ به الخير. وهي كلهــا آثار وغايات يَتطلع إليها مُريدو الزاوية وفقراؤها، ويتوقون إليها توقا.

لقــد حــرص الشــيخ عــلى تعــداد هــذه الآثار الإيجابية التي ســيجنيها مُريــدو الزاوية من قراره المُــوصَى به، بالتركيــز على ما يحظــى بقبول هؤلاء المُريديــن وإجماعهم، لا بما يمكن أن يكون موضع خلاف. فواضح أن كل هذه المزايا التي ستترتب على هذا الإذن، إنما تُجسّــد عــلى وجه التفصيل المقاصد العامة لكل طريقة من طرق التصوف. فهي بمثابة مُسَــلَّمات واتفاقات مسبقة[٢٧] مشتركة بين المُوصِي والمُخَاطَب. فحُجّة المنفعة، بهذا الشكل في الحِجَاج، تنقــل الإجماع والقبــول والحظوة التــي تتمتع بها النتائج لدى المُخَاطَب، إلى علة هذه النتائج وســببها الذي هو موضوع إقناع وأطروحة الحوار والنقاش.

وتختتــم الوَصيَّــة بتقديــم المُوصَى بــه تقديما يتجاوز الوصف الموضوعــي الحيادي، أي الترجمة له على سبيل الإخبار والإعلام، ويرمي إلى بناء نموذج معياري قادر على النهــوض بأعباء الطريقة. هكذا نهضت هــذه الخاتمة بوظائــف حِجَاجيّة واضحة مثل إضفاء الشرعية الرمزية والروحية على المُوصَى بــه، وتوجيه ســلوك الأتباع ببناء صــورة نموذجية أخلاقيا وروحيا للموصَى به، وتحصين قرار الوَصيَّة من أي اعتراض بتصويــر النتائج والمآلات الوخيمة المترتبة عــن ذلك الاعــتراض. فكيف بَنَــتْ الوَصيَّة الصورة النموذجية للشــيخ المُــوصَى به حتى تكون جديــرة بالاتّباع وموضع إجمــاع، أي حتى تنهض بوظيفة التأثير في عقول ووجدان الأتباع والمُريدين؟

تحقــق تشــكيل هــذا النمــوذج بالتركيــز عــلى المؤهــلات والقــدرات التي تعكس قيما مشــتركة في الحقــل الصــوفي، ومواضــع متفقا عليهــا، أي إنّها بتعبير مُنظّري الحِجَاج منطلقات للحِجَاج والإقناع.

---

(٢٤) يقــول برلْمان عن أهمية وخطورة هذه الحجة:» إننا نطلق الحجــة البراغماتيــة ((argument pragmatique على تلك التي تسمح بتقويم فعل أو حدث في علاقته بنتائجه المفيدة أو الضــارة. هذه الحجة تلعب دورا مهما في الحجاج بحيث أن بعضهــم قد أراد أن يعتبرها الخطاطــة الوحيدة لمنطق القيمة: فلأجل تقدير حدث ما تنبغي الإحالة على آثاره».
المصنف في الحجاج الخطابة الجديدة، شــاييم برلْمان ولوسي أولبرخت تيتكا، مرجع مذكور، ص: ٤١٣.

(٢٥) **المرجع نفسه**، ص: ٤١٣.

(٢٦) وهي المزايا المســتخلصة من هذه الفقرة بالوصية: « **وهو إذن، تكثــر به أفــواج التائبين بحول اللــه، وتصان به رســوم الشريعــة الربانيــة ومقاصدها إن شــاء الله، وتتبــع به الســنة المحمديــة المطهرة مخالفــة للرياء وابتغاء محبة الله، ويتحقق به القرب لمن كان صادق الطلــب بــإذن الله. ورجاؤنــا في الله أن يعــمّ به الخير بعموم رحمة الله**».

(٢٧) الاتفــاق المســبق عند برلْمــان هو «عماد الحجــاج ونقطة انطلاقــه، وهو عبارة عن مســلمات مقبولة وآراء مشــتركة ومعــان متفق عليهــا؛ إذ يعمد المحاجــج إلى اختيارها وفق مقتضيــات المقام لإيقــاع التصديق في المتلقــي وحمله على الإذعان لدعــواه ... وقوام هذا الاتفاق المســبق أو المقدمات التــي يصادق عليها المتلقــي وفق برلْمان: أمــور تحيل إلى الواقــع، وأمور تحيل إلى ما هو مفضّل عند المخاطب (القيم والمواضع)).
محــاضرات في البلاغة الجديدة، محمد مشــبال، دار الرافدين، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م، ص: ٢١.

ومن هذه المؤهلات، نذكر:

ـــ الأهليّة النسبية: كما تتجلى في قول المُوصِي: «فسيدي جمال، وهو من صُلبنا الترابي، قد نشأ على الطهارة كما يعرفه الأقارب والأباعد، وقد هيأه الله لأحوال الذكر السّنيّة التي نشأ عليها ونبت حتى تحقق له ميلاد جديد من الصلب الروحاني لهذه الطريق». تسعى هذه الكفاية إلى ترسيخ وتعظيم نموذج مثالي جدير بالتقدير والاتباع. فليس تأصيل نسب المُوصَى به هنا ترابيا وروحيا هو من باب تقديم وقائع تاريخية، بقدر ما هو تقديم لأصل حاسم في مشروعية وراثة الإذن. فإذا كان الأصل الترابي في النسب يخول مبدئيا مشروعية الوراثة، فإن الأصل الروحاني في النسب يعزز هذه المشروعية، فهي نشأة ثانية (روحانية) أشد تأثيرا على الأتباع من النشأة الأولى (طينية).

ـــ العناية الإلهية: حرص الشيخ المُوصِي وهو يقدم المُوصَى به في خاتمة هذه الوَصيَّة، بأنه كان محل العناية الإلهية منذ البداية. فقرار الشيخ المُوصِي بتوريث الإذن للشيخ جمال الدين، هو قرار يجسد اختيارا إلهيا ويعكس العناية التي أولاها الله تعالى لهذا المأذون له كما جاء في الوَصيَّة «وقد أشرقت والحمد لله بداياته، ولاحت تباشير أمره عناية من الله سابقة، وتحققت رسوم ذلك الأمر بدلائل اليقين التي حبا الله بها عباده الصادقين». وكأن الاعتراض على هذا القرار هو اعتراض على اختيار إلهي. وبالتالي فالإذعان لهذا القرار وتعظيمه هو إذعان وتعظيم لاختيار وعناية إلهية واضحة دلت عليها دلائل يقينية.

ـــ كفاية الأهلية والتكليف: وهي من أكثر الكفايات المطلوبة في هذا المجال. فقد قدمته الوَصيَّة على أنه قادر على حمل أعباء الطريق. وفي تصوير الطريق بأنها عبء ثقيل، إشارة إلى أن الإذن ليس متاحا لأي كان، بل لمن خصّ بهذه القدرة، ورُزق التوفيق والسداد والتأييد. وهو ما اجتمع في الشيخ المُوصَى به. «وهو بعد هذا كله، بفضل الله، أهل لحمل أعباء هذه الطريق، وللإخلاص في الإيفاء برسومها بما يلهمه الله من توفيق وتسديد، وعلى قدر ما يمده به من عون وتأييد».

ـــ المؤهلات الأخلاقية: لم تكتف الوَصيَّة ببناء نموذج الشيخ المأذون له القادر على حمل أعباء الطريق بما سلف من أوصاف فحسب، بل سَعتْ ـــ لإسباغ مزيد من المشروعية ـــ إلى مراكمة سلسلة من النعوت والأوصاف التي تقتضيها القيادة الروحية للطريقة (إحسان الظن بالناس، الدعاء بالخير لولاة الأمر وللعامة، الرفق بالأتباع، الإصغاء للعلماء العاملين، إسداء المعروف للفقراء والمحتاجين، الإحسان للآل المقربين)؛ وقد جاء هذا النسق المتتابع من الصفات دليلا على قدرة الشيخ المُوصَى به على تجذير الطريقة في المجتمع وعلى تمتين أواصرها مع الولاة والعامة. يقول الشيخ في خاتمة وصيته: «حريصا على إحسان الظن بالجميع، وإدامة الدعاء بالخير لولاة المسلمين وعامتهم، وعلى الرفق بالأتباع وصرفهم عن مزالق المفسدين، وكذا على الإصغاء إلى العلماء العاملين، وإسداء المعروف للفقراء والمحتاجين، والإحسان للآل المقربين».

٤ـ٢ ـ بلاغة العواطف في اختتام الوَصيَّة:

تحرص الخطابات التي تسعى للتأثير في مُخَاطَبها وتدفعه للقيام بعمل ما ألّا يقف تأثيرها على الإدراك العقلي لهذا المُخَاطَب، بل أن يمتد هذا التأثير لإرادته. فلا فعل من دون تحريك للإرادة والوجدان.

لقد استهدفت هذه الوَصيَّة مُخَاطَبها ـــ ولاسيّما في نهايتها ـــ باستثارة شعوري الرهبة

والخوف من جهة، والرجاء والأمل من جهة ثانية. فتحسبًا من الشيخ المُوصِي لأيّ تهاون في الامتثال لوصيته، ولأي تقصير في الإذعان لمقتضى وصيته، استثار شعوري الخوف والرهبة في نفس أي مخالف؛ أي الخوف المترتب عن الإقصاء الرمزي والاستبعاد النهائي من الأجواء الروحانية للطريقة. يقول الشيخ: «وكل من خالف العمل بمقتضى هذه الوَصيَّة فإننا والطريقة منه براء». وقد جاءت الآية الكريمة عقب هذا الوعيد لتضفي عليه رهبة دينية، فتجعل هذه المخالفة مماثلة لأي مخالفة لشرع الله تعالى، ومن ثَمَّ تَعَرُّضُ هذا المخالفِ للعقاب الإلهي. فالوعيد هنا ماثل بين مخالفة العمل بالوَصيَّة والمخالفة لشرع الله، وهي مماثلة أوحى بها الجزء الأول من الآية الكريمة: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ»[٢٨].

وعلى غرار الخطاب الديني الذي يتوسل، في غالب الأحيان، بالوعد والوعيد، فالآية الكريمة تستثير أيضا شعور الرجاء والأمل وذلك باعتماد أسلوب الوعد لحثّ المُخَاطَبين للوفاء بعهد الوَصيَّة كما يؤكده الشطر الثاني من الآية الكريمة «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهَ فَسَنُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». وتكون بذلك الوَصيَّة انتهجت أسلوب الوعيد والوعد طريقا لاستنهاض همة المُريدين للعمل بمضمون الوَصيَّة والامتثال لغرضها الأساسي.

وفي الختام، اضطلع الدعاء بوظيفة غلق خطاب الوَصيَّة «وسلام على عباد الله الذين اصطفى، والحمد لله رب العالمين»، وأيضا إقفال المسار الحِجَاجيّ الممتد والمعتمد من بدايتها إلى نهايتها، والمتجسد في المتوالية الآتية التي تعكسها بوضوح الفقرة الأخيرة من الوَصيَّة: المُوصَى به له من النسب المزدوج (الطيني والروحاني) ما يجعله جديرا بتولي الطريقة البودشيشية، ثم العناية الإلهية، فالأهلية والقدرة، فالخلق القويم، ثم أخيرا الاصطفاء. الذي هو بمثابة خلاصة ونتيجة حتمية لهذا المسار الحِجَاجيّ.

خاتمة:

بناء على ما سبق، نخلص في هذه الدراسة إلى أن جنس الوَصيَّة عموما، والوَصيَّة الصوفية تحديدا، هو خطاب بلاغي حِجَاجيّ متكامل، يستهدف إلى جانب عقل المتلقي وجدانه وإرادته، ما دامت المقصدية من هذا النوع من الخطابات لا تُختزل في تغيير رأي أو قناعة، أو بناء اعتقاد فكري، أو تبني منظور ووجهة نظر معينين، بل تروم إنجازَ فعل وتوجيه سلوك. لذلك كانت بلاغة العواطف مدخلا مناسبا لفحص البنيات الخطابية والاستراتيجيات الحِجَاجيّة في عملية بناء مثل هذه النصوص.

لقد كشف تحليل وصية الشيخ حَمزَة القادري البودشيشي أنها ليست نصًّا تنهض فيه اللغة ببناء المعاني وتمثيل الوقائع والحقائق فحسب، بل هي نصٌّ تتحكم في صياغته اللغوية والخطابية وضعية تلفظية يسعى من خلالها الشيخ المُوصِي إلى بناء أغراض بلاغية وتداولية، وتجاوز الإخبار إلى التأثير في المتلقي/المُريد. لذلك اعتمدت الوَصيَّة بناء حِجَاجيّا متدرجا، استهدف إقناع المُريدين بمجموعة من قيم الطريقة البودشيشية، ودفعهم إلى تمثلها في مسارهم التربوي والروحي.

وقد بيَّنَ التحليل أن هذه الاستراتيجيات البلاغية والحِجَاجيّة محكومة بنظام خطابي متماسك، يراعي المُخَاطَب ومقام التلفظ، ويؤسس لعلاقة تواصلية تقوم على الثقة والاقتداء بالنموذج وليس على الإكراه والإلزام. وهذا ما يفسر اعتماد الوَصيَّة على حِجَاج قيمي وأخلاقي، واستنادها إلى مواضع

(٢٨) **سورة الفتح**، الآية: ١٠.

ومرجعيات مشتركة في الحقل الصوفي من شأنها أن تعزز القناعة الداخلية للمُخَاطَبين.

لقد كان تحليلنا لهذه الوَصيَّة تجسيدا لهذا البناء البلاغي الحِجَاجيّ المخصوص، فقد عملنا على تأصيل الأغراض الحِجَاجيّة لنص الوَصيَّة عموما بوصلها بشتّى الدلالات اللغوية التي تحتفظ بها المعاجم لهذا الفن الأدبي، ثم تأسيسا على هذا الجانب شرعنا في بسط الآليات الحِجَاجيّة المعتمدة بالاستفادة مما يطرحه حقل بلاغة العواطف من استراتيجيات وتقنيات تستهدف تحريك إرادة المُخَاطَب نحو الفعل وتوجيه سلوكه، فحللنا الصورة الخطابية للموصي (الإيتوس) كما عكسها نص الوَصيَّة، ومختلف الصيغ والأساليب التي استثارت وجدانيا المُخَاطَب المُوصَى من قبيل الوصف والسرد وصيغة الدعاء والاختتام.

الملحق: نص الوَصيَّة كاملا[٢٩]

بسم الله الرحمان الرحيم

وصية مباركة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد الرسول الأمين، الرحمةِ المُهداة وخير متّبع إلى يوم الفصل والدين، وعلى آلِ بيتِه وعترتِه الطاهرين، ورضي الله عن كافة العلماء العاملين، الذاكرين الله كثيرا من الثلة المأذونة ومن زمرة الوارثين.

وبعدُ، فإنّ طريق الإرشاد إلى الله وسبيل الدلالة عليه بتلقين الذكر هي لدى العارفين بمقاماتها أقوَمُ طريق وأبيَنُ محجة، وهي لدى الذائقين حلاوة الإيمان أعظم توفيق وأنجَحُ منهاج، إذ فيها تنكشف عن قلوب المُنتسبين الحُجُب وتزول الأكدار، وبها تُدرك في حرز اللطفِ والأمان مقامات الأطهار، وبها يُنال العلم الذي به يُعبَد الله حقا على نبضاتِ الإخلاص الخالية من شوائب الأغيار.

وبعدَ البَعدِ إلى لا ما لا نهاية فلا وجودَ إلا لله، وقبلَ القَبلِ إلى ما لا درايةَ فلا وجودَ إلا للهِ، ففي بحر الوحدة ذهبتْ الفرديات وانطمستْ الأنانيات، وفي حضرة القيام المُحمديّ ثبتت حقوق العبودية لله الواحد الفرد الصمد، فوجبَ شكر الشكور على العُبَيد حَمزَة بن العباس البودشيشي القادري. وبمزية هذا الشكر نصدعُ ببعض كوامن الجنان، على سبيل الحمدِ والامتنان، للربّ المنّان، خضوعا لأمر الشرع وإقرارا بمقتضى صنع الله من حكمةِ البيان، فنحمدُه على ما رزقنا من معنى العبودية، وعلى ما أورثنا وهدانا إليه من توجيه القلوب وترقيتها حتى تُخلص التعلق بالألوهية، وذلك مِنه سبحانَه وتعالى مِنّة وفضلا، «**وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظورًا**».

بُشرى من الله بقبول توبةِ الآباء والأجداد، وبإكرام ذوي العزم والتصديق والاجتهاد، وحُسنى منه تبارك وتقدس، بأنْ أوجب الإرث بحكمه للأحياء في عرض الحسّ. فلا يعجزه أن يوجبه سبحانه بهذا الشرط كذلك في المعنى. فقد صدقت ولله الحمد بشائرُ كان يخبرُ بها الوالد، تغمده الله برحمته، وقد أبرّه الله في الإذن الذي خصَّنا به وأشهَدَ عليه إخوانَنا الفقراء، بعد أن ذكره تلميحا وتصريحا، ثم وثّقه في وصيّة مسجلة على القواعد المرعية.

وها قد رأينا ذلك الإذن ورآه المؤمنون يتفجر فيوضئ غزارا، وينفلق بركات وأنوارا، ما فتئت

(٢٩) مع الشكر الجزيل للأستاذ المحترم يونس بن إسماعيل مدير مؤسسة باب الصعيدة بتطوان ومقدم الزاوية البودشيشية بمارتيل الذي أمدني بنص الوصية. وشكري الجزيل وامتناني الكبير للشيخ سيدي منير، شيخ الزاوية البودشيشية بمداغ، حفيد الشيخ سيدي حمزة صاحب الوصية، الذي سمح لنا بتحليل هذا النص ونشره.

تزكو وتزداد انتشـارا، غَرَفَ منها في البلدان الدانية والقاصية أفواجٌ من الشيب والكهول، ومن الشبابِ خاصة رجالا ونسـاء، أحيوا على مقتضاها وسعدوا بها على مـا رزقهم الله من إحياء مراسـم النسـبة للذكـر عـلى مبتغاهـا، وذلـك في يسر انتدبـت إليه السـنة، وتقريب وافق العصر، وتدارك به اللهُ الأمةَ، تمهيدا لسبيل التوبة وعونا على ما شرع لنا في الدين من إقامة الأركان، ومن التحلي بفضائل الاسـتقامة وسـيماء الرضـوان. وقد جمع اللـه فيها على هدي المحبة والصحبة من كُتبَ له نصيبٌ من إرادة وجهه الكريـم، وحاز بالمعيّـة المنصوص عليهـا في الذكر الحكيـم، جـزاءَ صبر النفـس والثبات عـلى العهد، أذواقا من فضائل التحقق والإحسـان، أو علوما من فهم الكتـاب والإيمان، أو حالا مـن أحوال الصلاح والتقى والاطمئنان.

ومـن تجلياته عزّ وجلّ بالوسـع والإكرام، ومن سـابغ يمنـه في البـدء والإكمـال والتمـام، أن هذه الشـجرة الزكية التي نسـتظل بظلها، وهي شجرة الاجتماع على ذكر الله، كان قد جدّد غرسها في التربة البودشيشية القادرية شيخنا وابن عمنا سيدي أبو مدين بن المنور، وعهد بالإذن فيها لوالدنا، فتعهدها بالرعايـة حتـى اشـتدّ عودهـا، ثم انتقـل إلى عفو الله بعـد أن أذن لنا مواصلـة صيانتها إذنا جامعا مجموعا شاملا، أنفقنا المهجة في تصريفه وفي العمل على توسـيع دائرة النفع به إعظامـا لقدره، ووفاء لحقه وواجبه، مستمدين الحول والقوة من الله على ضعفنا.

ومـن هذا الإعظام لقدر الإذن، ومن الوفاء بحقه وواجبه أن نشهدَ أمام الحق سبحانه أن الإذن الذي لدينـا في تلقين الذكـر والدعوة إلى اللـه على طريق الافتقـار إليه، هذا الإذنُ ينتقل بعد مماتنا إلى ولدنا الأرضّى مـولاي جمـال الدين، ثم من بعـدِه إلى ابنِه البارّ مـولاي منير. فسـبحان الله تعالى سـبحانه، الحي القيوم ما أعظم شأنه. فلكل أجلٍ كتاب. وأين نحنُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ نزل في حقه قوله تعالى: «**وَمَا مُحَمَّد إِلَا رَسُـولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُـل، أَفَإِن ماتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقابِكُـم، وَمَـن ينقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْـهِ فَلَنْ يضُرَّ اللهَ شَـيْئا، وَسَـيَجْزِي اللهُ الشَّـاكِرِين**». صدق الله العظيم.

فوصيتنا لكافـة المُريدين لوجه الله تعالى رجالا ونسـاء ممـن أخذوا عنـا العهد على التوبـة إلى الله أن يبادروا بتجديد العهـد لوارثنا الأوحد، والمأذون الأرشـد، ونصيحتنا لهم أن يعظموا الرابطة بينهم وبينـه، تعظيما لبنيانها المرصوص بعبارة التوحيد لا إلـه إلا الله، وبشرانـا بأنـه إذن صحيح متين في الأذكار العامة والخاصة، وفي التربية بمواهب الهمة وبقـوة الحال وحكمة المقـال. وهـو إذنٌ، تكثر به أفواج التائبين بحول الله، وتُصان به رسوم الشريعة الربانية ومقاصدها إن شـاء الله، وتُتبع به السـنّة المحمدية المطهرة مخالفة للرياء وابتغاء محبة الله، ويَتحقق به القرب لمن كان صادق الطلب بإذن الله. ورجاؤنا في الله أن يعمّ به الخير بعموم رحمة الله.

فسـيدي جمال، وهو من صلبنا الترابي، قد نشأ على الطهارة كما يعرفه الأقارب والأباعد، وقد هيأه الله لأحوال الذكر السّنيّة التي نشأ عليها ونبت حتى تحقـق له ميلاد جديد من الصلـب الروحاني لهذه الطريق. وقـد أشرقت والحمد للـه بداياته، ولاحت تباشير أمره عناية من الله سابقة، وتحققت رسوم ذلـك الأمر بدلائل اليقـين التي حبا اللـه بها عباده الصادقين. وهو بعد هذا كله، بفضل الله، أهل لحمل أعباء هذه الطريق، وللإخلاص في الإيفاء برسـومها

بمـا يلهمه الله من توفيق وتسـديد، وعـلى قدر ما يمـده به من عـون وتأييـد، حريصا على إحسـان الظن بالجميع، وإدامة الدعاء بالخير لولاة المسلمين وعامتهم، وعلى الرفـق بالأتباع وصرفهم عن مزالق المفسـدين، وكذا على الإصغـاء إلى العلماء العاملين، وإسـداء المعروف للفقراء والمحتاجين، والإحسـان لـلآل المقربين. وكل من خالف العمل بمقتضى هذه الوَصيَّـة فإننـا والطريقة منـه براء. «**فَمَـنْ نَكَثَ فَإِنَّمَـا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِـهِ، وَمَـنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهَ فَسَـنُؤتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**». وسـلام على عباد الله الذين اصطفى، والحمد لله رب العالمين.

وحرر بمداغ في ١٢ ربيع الأول عام ١٤١١هـ

هجرية

موافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٩٠ ميلادية

القادري بودشيش حَمزَة بن العباس

خديم الطريقة البودشيشية

قائمة المراجع:

- **بالعربية:**
- الإمبراطورية الخطابية، صناعة الخطابة والحِجَاج، شاييم بِرلْمان، ترجمة وتقديم وتعليق د الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م.
- فـن الخطابة، أرسـطو، ترجمة عبـد الرحمن بـدوي، دار الشـؤون الثقافيـة العامـة، آفاق عربية، بغداد.
- في نظريـة الحِجَاج دراسـات وتطبيقات، عبد اللـه صولـة، مسـكيلياني للنـشر والتوزيـع، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص: ١٣.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، د ت، ج١٥.
- محاضرات في البلاغة الجديدة، محمد مشبال، دار الرافدين، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.
- الوصايا الأدبية إلى القرن الرابع هجريا، مقاربة أسلوبية حِجَاجيّة، عبد الله البهلول، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص: ٥٠.
- المصنف في الحِجَاج الخطابة الجديدة، شاييم بِرلْمان ولوسي أولبرخت تيتكا، ترجمة محمد الوالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٣م.

بالفرنسية:

- Rhétorique, Aristote, le livre de poche, Librairie Générale Française, 1991.
- La rhétorique des passions, Gisèle Mathieu Castllani, puf, Paris, 1re édition, 2000.
- Lector in Fabula, Umberto Eco, éditions Grasset Fasquelle, pour la traduction francais, 1985.